المحاضرة الرابعة: الشعر السياسي في العصر الأموي

1- أسباب شيوع الحزب السياسي في عصر بني أمية:

كان المسلمون في عصر الخلافة الراشدة كلها جماعة متحدّة قوية متماسكة فكريا وعقائديا وخاصة بعد أن قضى أبو بكر -رضي الله عنه- على الردة، وانصرف المسلمون إلى الجهاد يحملون الإسلام، ويبلغون رسالته للأمم من حولهم، فدخل الناس في دين الله أفواجا، وانطفأت شرارة العصبية القبلية بعدما أعلن الإسلام الحرب على شعار الجاهليين ليوحد بين صفوف المسلمين داعيا إلى إعلاء كلمة الله، وإلى تحقيق الشريعة الإلهية المتمثلة بالإسلام الذي يدعو نظامه إلى تطبيق الحرية والمساواة والعدالة.

والمتتبع لتطور الأحداث السياسية منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك بأن نظام الحكم الإسلامي نشأت بين جنباته فكرة المعارضة السياسية، والتي ظهرت إلى العلن مع مقتل عثمان بن عفان- رضي الله عنه-، وما أعقبها من اضطرابات وفتن داخل المجتمع الإسلامي وتوزع المسلمين إلى شيع وأحزاب متنافسة لكل منها فهمٌ خاص لنظام الحكم؛ ذلك أن حادثة مقتله أحدثت تصدعا كبيرا في تاريخ الدولة الإسلامية، وولدت أزمة انعدام الثقة بين المسلمين، كما أن مقتل خليفة رسول الله وأحد صحابته لا يعد انتهاكا لقدسية الخليفة فحسب، بل إن الحادثة فتحت المجال- فيما بعد- لتغيير نمط الحكم والذي عهده المسلمون قائما على الشورى بينهم إلى التوريث كما صار في عهد دولة بني أمية، يقول عبد القادر القط في هذا الصدد: «على أنّ الشعر لم يلتزم بالسياسة التزاما حقا إلّا بعد مقتل الخليفة عثمان وما أعقبه من فتن وحروب أهلية متصلة انقسم العرب فيها إلى شيع وأحزاب تتنافس على السلطة وتختلف في فهمها لنظام الحكم».[1]

فحين استتب الأمر لمعاوية بعد مقتل علي- رضي الله عنه- واستقام الحكم لبني أمية واستأثروا بالسلطة السياسية استئثارا غُيِّبت فيه- في بعض الأحيان- شريعة الإسلام وأُبدلت بشريعة الجاهلية القائمة على العصبية وحمية الدم، تنامت فكرة المعارضة لسياسية

للأمويين في الحكم؛ إذ قد يكون في ممارسات الحكم الأموي من ترف وفساد وتمييز وقمع ضد آل البيت ما غذى التوتر والسخط، وزاد من خوف المسلمين على مصير الخلافة والدولة الإسلامية، فما كان منهم إلا الالتفاف حول بعضهم البعض في مذاهب وتيارات وأحزاب سياسية حملت على عاتقها التصدي للحكم الأموي، فكان لكل منها شعراؤه وخطباؤه، إذ كان الشعر يجري على كل لسان واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة.

ولقد سجل التاريخ أنّ أهم الأحزاب التي شكلّت معارضة سياسية حقيقية للحكم الأموي يتزعمها الحزب **العلوي** وحزب **الخوارج**، والحزب **الزبيري**، كونها الوحيدة التي خاضت معارك وثورات ضد الأمويين، ومن ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر، حرب "الحرّة" عام 63ه التي قام بها الزبيريون ضد الأمويين، والتي شارك فيها الموالي بعد أن استبد بهم الفقر وحاصرهم الجوع، واستقوى عليهم الظلم، يقول أحد شعرائهم مصورا هذه المعاناة:

أبلغْ أمية عني إن عرضـــتَ لهـــا وابن الزبير وأبلغْ ذلـــك العربـــاَ
أنّ الموالي أضحت وهي عاتبـــة على الخليفة تشكو الجوع والحرباَ

يحدد هذان البيتان موقف الرعية من سياسة الأمويين التي دفعت النّاس إلى إطلاق صرخة الاستغاثة من شدة الجوع، واضطهاد الحروب، وبخاصة أولئك الأعاجم الذين لا تسري في عروقهم دماء عربية، فكانت أولى بوادر الثورة تلوح في الأفق مع هذه السياسة الجائرة، وكان الرد فعلا بالثورة الدائمة التي لا يجب أن تضع أوزارها حتّى تتحقق العدالة التي جاء بها الإسلام منذ بزوغ فجره.[1]

2- شعر الأحزاب السياسية:

الشعر السياسي هو مجمل القصائد التي نظمت حول فكرة سياسية إمّا تمجيدا أو تبنيًّا، وذلك بالدفاع عنها وشرحها في قالب فني تمتزج فيه جمالية الفن مع حماسة الانتماء السياسي لتحمل بين طياتها إقامة الأدلة على صواب وصحة هذه الفكرة.

ويقصد بالشعر السياسي هنا الشعر الذي دار بين الأحزاب السياسية المتناحرة، وكان «لكل حزب شعراؤه الّذين يعبرون عن أهدافه ومفهومه للحكم وحقه فيه، ويهاجمون خصومه ويشككون في حقهم ويحطون من شأنهم... والحق أنّ **العقيدة** ظلت محورا لتلك الخصومات السياسية بين تلك الأحزاب، يلتمس كلّ حزب فيها بيانا لِحقه وإعلاء لشأنه وتأييدا لنظرته، ويرمي سواه من الأحزاب بالخروج عليها في السلوك والأخلاق ونظام الحكم».[1]

لذا تقاطع الشعر السياسي مع شعر المدح إلى حد بعيد، وذلك للإشادة بالأفكار السياسية التي يتبناها الحزب، كما تعتمد العملية أيضا على مدح لزعيم ذلك الحزب والثناء عليه، وفي مقابل ذلك تضمّن الشعر السياسي محاولة دحض كل الأفكار السياسية المعادية باتباع أسلوب الهجاء والحطّ من قيمة الأحزاب الأخرى، ليبدع الشعراء شعر تكون دوافعه الانتماء السياسي لا المصالح المادية أو الشخصية.

أ- شعر الحزب العلوي (الشيعة):

يرجع شعر الشيعة إلى مرحلة متقدمة من تاريخ الدولة الإسلامية؛ حيث بدأ التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها علي- رضي الله عنه- حاضرة لخلافته، وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأنّ أبناءه وأحفاده أهل الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون، وأنّ الأمويين اغتصبوها منهم، وينبغي أن تُردَّ إليهم، فكثر شعراء الشيعة يتقدمهم **كثيِّر** شاعر الكيسانية، **والكميت بن زيد** شاعر الزيدية، وظلوا يبكون أئمتهم الّذين سفك الأمويون دماءهم، ويندبونهم بدموع لا تجف، وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر

الشيعي في هذا العصر، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أوّلا ثمّ على زيد بن علي وابنه يحي، ومن مثل ذلك قول **سليمان بن قَتَّة** يرثي الحسين:[1]

مررت علـــى أبيـــات آل مُحمـــدٍ فلم أرهـــا كعهـــدها يـــوم حُلَّـــتِ
وكانوا رجاءً ثمّ صـــاروا رَزِيَّـــةً وقد عظمت تلك الرزايا وجَلَّـــتِ
ألم تر أنّ الشمس أضحت مريضة لفقد حســـينٍ والـــبلاد اقشـــعرَّتِ

ويظهر **الكميت بن زيد الأسدي** شاعرا مبرزا أظهر حبه للهاشميين، ولعلّ "هاشمياته" أصدق الأشعار المعبرة والمتبنية لأفكار هذا الحزب، يقول في إحداها معلنا الحرب على بني أمية:[2]

فقل لبني أميـــة حيـــث حلـــوا إن خفـــت المهنّـــد والقطيعَـــا
إلّـــا أفٍ لـــدهرٍ كنـــت فيـــه هـــدانا طائعـــا لكـــم مطيعَـــا
أجـــاع الله مـــن أشـــبعتُموهُ وأشبع مـــن يجـــوركم أجيعَـــا
ويلعـــنُ قـــذ أمتـــه نهـــارا إذا ســـاس البريـــة الخليعَـــا
بمرضـــى السياســـة هاشِـــمي يكـــون حيـــا لأمَّتِـــهِ ربيعَـــا

حيث يعلن الكميت معارضته الشديدة لحكم الأمويين، رافعا شعار استعادة الحق في الخلافة من مغتصبيه الّذين ملأوا الدنيا ظلما وظلالا، مشيرا إلى أنّ لحظة الخلاص من جور وظلم حكام بني أمية لا يقدر عليها إلّا إمام هاشمي يقيم أمور الحكم ويكون ربيع أمته تبعا لذلك نجد هاشميات الكميت تدلل دوما على **أحقية الخلافة** لبني هاشم، فهو شاعرهم المعبّر عن آرائهم السياسية والمدافع عن حقهم المغتصب، فالهاشميات «إذن مناظرات في حقوق الهاشميين لا تستند إلى الإقناع العاطفي الّذي نلقاه عند بقية شعراء الشيعة، وإنّما تعتمد أوّلا وقبل كلّ شيء على الإقناع العقلي القائم على النظر العقلي المحض مستعينا في

استدلالاته بما يتأتى له من **آيات القرآن الكريم والقياس المنطقي** على نظام التوريث في الإسلام قاصدا أن يظهر بني أمية غاصبين لحق بني هاشم».[1]

حيث نجد الكميت في أشعاره يعقد مقارنة بين حكام بني أمية وحكام بني هاشم مقدما الأدلة والحجج **العقلية والتاريخية** وحتى **النقلية** مستعينا بأسلوب الاحتجاج بالقرآن الكريم مؤكدا على أنه إن كان أحد يرث رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فآل البيت أولى الناس بذلك، فهم الأحق بخلافة المسلمين، نجده يقول:[2]

وجدنا لك فـــي آل حـــاميم آيـــةً تأولهـــا منـــا تقـــي ومُعْـــرِبُ
وفي غيرها أيَـــا وآيَـــا تتابعـــت لكم نصيب فيها لذي الشك منصِبُ
يرون لهم فضلا على النّاس واجبا سفاها وحـــق الهاشـــميين أقـــربُ

أمّا الخاصية الأخرى التي تميز بها الشعر السياسي للحزب العلوي فتتمثل في الصبغة الدينية الممزوجة بإظهار الحب والولاء لآل البيت، **فيدعون بالسقيا** لقبورهم الطاهرة والتي يمكن أن تعوضهم عن عذاب الدنيا، فهم لم يكونوا يبكون ويرثون فقط، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وتفجعه تحريضا على الأخذ بثأر الحسين، ولوماً لمن خذله وقعد عن نصرته، ويمثلهم أحد شعرائهم المكنى **بعبيد الله بن الحُرّ**، والذي أنشد:[3]

ويا ندمي أن لا أكـــون نصـــرتُه ألا كلّ نفـــسٍ لا تســـدَّد نادمـــهُ
وإني لأَنَى لم أكن مـــن حُماتـــه لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمـــهُ
سقى الله أرواح الّـــذين تـــآزرُوا على نصره سقياً من الغيث دائمهُ

وعلى هذا النحو كان كلّ شاعر شيعي يطوي في نفسه حزنا عميقا على أئمته المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلوهم، ولكن أنَّى ذلك وسيوف بني أمية

بالمرصاد لكل من يخرج عليهم، وهنا تجدر الإشارة إلى نظرية التقيَّة التي نشأت بين الشيعة «فكان من حق الشيعي أن يخفي عقيدته ويكتمها حتّى لا يعرض نفسه للخطر، بل لا مانع من مصانعة خصومه أحيانا»[1]، ولشاعر الشيعة الكميت بن زيد- وغيره من شعرائهم- مدائح في بني أمية تحمل على التقيَّة، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم.

يمكن القول أن شعراء الشيعة من أصدق الشعراء قولا لأن شعرهم السياسي ينبعث عن عقيدة صادقة لآل البيت، وهذا ما جعله بمنهجه العقلي القائم على الجدال والمحاججة -بنص القرآن الكريم مثلا سورة الشورى وغيرها من آيات القرآن التي تثبت حقهم- يجد لنفسه موطنا في تاريخ الشعر العربي بما حمله من خصائص ومميزات فنية لم يسبقه إليها أي لون شعري.

ب- شعر الخوارج:

من المعروف أنّ حركة الخوارج قد نشأت بعد موقعة صفّين، بعد رفضهم لفكرة التحكيم بين علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- ومعاوية بن أبي سفيان، فقد رأت طائفة من جند علي أنّ في ذلك خروجا على الحق الّذي من أجله قاتلوا معاوية وجنوده، وبذلك صاروا حربا على علي وعلى معاوية، إذ التفوا منذ بداية نشأتهم «حول فكرة سياسية جعلتهم أقرب الطوائف الإسلامية إلى مفهوم الحزب السياسي...، فهم لم يعتمدوا في دعوتهم على انتماء ديني كالهاشميين، ولا على انتماء قبلي كالأمويين، ولا نزعة إقليمية كالزبيريين، بل جمعهم- على اختلاف قبائلهم وأفرادهم بين يمنية ومضرية وموال- رأي واحد في الخلافة هو أنّها شورى بين المسلمين جميعا لا فضل لعربي فيها على أعجمي إلّا بالتقوى، ولا حق فيها لقبيلة دون أخرى، كما جمعهم إيمان واحد بأنّ أمور الحكم ونظمه لم تكن تسير وفق مقتضيات الشريعة في التقوى والعدالة والمساواة»[2]، أما عن كون هذا الحزب حزبا دينيا فهذا أمر لا شك فيه كما قال كثير من الباحثين«فقد كانت نشأتهم الأولى

مرتبطة بمخالفة الإمام على أسس دينية، بدأت بالتخطئة ثمّ تعددته إلى التكفير. وكان اعتزالهم للناس واتخاذهم دار هجرةٍ على أسس دينية رأت في المسلمين كفارا، ولا يحل المقام- عندهم- بين الكافرين. وكان انقسامهم بعد ذلك إلى فرق كثيرة أساسه اختلافات دينية بين ابن الأزرق ونجدة وابن صفّار وابن إباض وهم رؤوس الفرق الأربعة الكبيرة عندهم».[1]

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر حياة حرب، يطلبون الاستشهاد في سبيل عقيدتهم في ولاية الأمة وأنه ينبغي ألا تكون قاصرة على قريش، بل يتولاها خير المسلمين ورعا وتقوى ولو كان عبدا حبشيا، وشعرهم يعكس حياتهم السياسية بجانبها الفكري والعسكري، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوهم ورواحهم واستقرارهم وترحالهم كما قال شوقي ضيف، وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا، ومن ثم كان شعرهم في جملته حماسيا، وهي حماسة لا تحركها العصبيات القديمة، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي يؤمنون بأنّها تطابق تعاليم الدين الحنيف، وأنّ عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين حتّى يفوزوا برضا الله وثوابه، فكان الموت أمنية كلّ خارجي لأنّه السبيل للفوز بالاستشهاد وأخذ الثواب، يقول **يزيد بن حبْناء**- وكان من الأزارقة-:

أريد ثواب الله يوما بطعنة غموسٍ كَشِدْق العنبريِّ بن سالم[2]

فهم يستعذبون الموت ويطلبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجنانه، وابتغاء اللحاق بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم ونعيمه، يقول **عمران ابن حطان**:[3]

لقــد زاد الحيــاة إلــيَّ بغْضًــا وحُبًّــا للخــروج أبــو بِــلالِ
أحاذرُ أن أموت على فِراشــي وأرجو الموت تَحت ذَرَا العَوَالِي
ولو أني علمــتُ بــأنّ حَتفِــي كحتفِ أبي بــلال لــم أبــالِي
فمن يــك همُّــهُ الــدنيا فــإنِّي لها، والله ربُّ البيــت- قــالِي

تكشف الأبيات عن تصور شاعر الخوارج للجهاد، الذي يقوم على استلهام بطولات شخصياتهم ورفاقهم وأبطالهم- مثل أبو بلال في هذه الأبيات- حتى أننا نلاحظ اندفاع الشاعر صوب المنية التي أصبحت مطلبا ملحا بالنسبة إليه، وكأن الحياة حجاب يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه، وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التي نجدها عند شعراء الفرق الأخرى، وإذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول **أم عمران الراسي** حين قتل ابنها:[1]

الله أَيَّــــد عِمْرانًــــا وطهَّــــره وكان عمران يدعو الله في السّــحَرِ
يدعوهُ سِــرًّا أو إعلانــا ليرزقــه شــــهادة بيــــدي مِلْحــــادَةٍ غُــــدَرِ

ودائما نجد هذه الصورة من الرثاء الحماسي في شعرهم، فهم يتعطشون للموت؛ من حيث هو موت موصول بآمالهم في حياة الخلد والرضوان، وهم من سيفتح لهم أبواب الفراديس والجنان.

وهذه أهم سمة يجتمع حولها شعر الخوارج، يقول أحد الباحثين متحدثا عن خصائص شعرهم: «يكاد شعر الخوارج كله يذهب في عدة أغراض محددة يجمعها **الجهاد** في سبيل العقيدة... ولسنا واجدين لديهم شعرا مذهبيا بمعنى الكلمة، وإنّما هو شعر يذهب في مجموعه في تصوير حروبهم، وتمجيد أبطالهم وقوادهم، والإشادة بشجعانهم وتفانيهم في الاستشهاد، وطلب ثواب الجنة، جزاء جهادهم واستعذاب فظائع ما يتكبدون زلفى إلى الله مطنبين في تمجيد شهدائهم وتقديسهم».[2]

إذن لقد تعمقت مقالة الخوارج في نفوس الشعراء حتّى أصبحت جزءا منهم، فهم يعيشون لها ويعيشون بها، حيث أنّهم تبنوا طروحاتها الفكرية التي تحمل صبغة سياسية في شعرهم محاولين إخراجها في قوالب فنية مؤثرة، وإن لم تطاوعهم- أحيانا- الأدوات الفنية في ذلك كما حصل مع أبرز شعرائهم: **الطرماح بن حكيم، وقطري بن فجاءة وعمران بن حطان**، حيث يشير عبد القادر القط إلى أنّ الخوارج لم يكونوا شعراء في المقام الأوّل، بل كانوا مناضلي سياسة وحرب، لذلك لا نستطيع أن نلتمس في شعرهم من الظواهر الفنية ما نجده عند غيرهم من الشعراء، إذ كان أغلب شعرهم نفثات تلقائية قصيرة لا مجال فيها لكثير من التفنن والإبداع وإن غطى عليها شيئا ما صدق الشعور وحماسة الإيمان، كما ألمح شوقي ضيف إلى هذا أيضا قائلا أنّهم كانوا يبدئون ويعيدون في معانيهم، ولولا ما يلقانا فيها دائما من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم.

ج- شعر الزبيريين:

الزبيريون هم جماعة عبد الله بن الزبير بن العوام وأخيه مصعب الذين اتخذوا من مقتل الحسين أداة للتشنيع على يزيد بن معاوية- الذي استخلفه لولاية العهد بعده- وجماعته، يقول شوقي ضيف: «فثارت المدينة، وأوقع بها يزيد وقعة الحَرَّة المشهورة، فاتسعت الجروح في الحجاز، وبدا للعيان أنّ الأمويين، وإن كانوا قرشيين يحكمون بسيوف كَلْبٍ وغيرها من قبائل الشام اليمنية...»[1]، وكأنه لم يعد لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم، وحقا أنّ الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش.... وقد مضوا يلُون الخلافة كما وُليها يزيد، لا بسلطان شرعي وإنّما سلطان السيف والقوة.

وبدا بعد معارك وحصار كأن **ابن الزبير** هو القرشي الذي اختير للجماعة، فأبوه من كبار الصحابة وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم لكن

سلطان الزبيريين «لم يدم طويلا حتّى تكون لهم فلسفة سياسية خاصة أو يكون لهم حزب سياسي بالمعنى الصحيح على أنّنا لو تجاوزنا أشخاص بني الزبير أنفسهم وتدبرنا أمر هذه الدولة التي لم تدم حياتها أكثر من تسع سنين لأدركنا أنّها لم تكن تمثل مجرد طموح شخصي وتطلع إلى الحكم عند الزبريين بل كانت في حقيقتها تطلعا من القرشيين وأهل الحجاز عامة لكي يستعيدوا ما سلبهم الأمويون من سلطان بانتقالهم إلى الشام واستئثارهم بالسلطة واستعانتهم بالقبائل اليمنية، وإذكاء روح العصبية بين سائر القبائل».[1]

لذلك نرى الحديث عن قريش وما أصابها من محن وفرقة هو المحور الأساسي عند شاعر الزبيريين **عبيد الله بن قيس الرقيات**، كما أنه ساير طموحات سادته من العائلة الزبيرية، فحاول صياغة أفكار وأدلة تثبت أحقية آل الزبير في الخلافة، من منطلق؛ أن الخلافة يجب أن تبقى في ديار قريش لأنها تمثل للعرب رمز وجودهم، ودليل ذلك تواجد الأماكن المقدسة في أرض الحجاز، وهي أحق أن تكون قبلة المسلمين وعاصمة لهم، حيث ينشد ردا على الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تُنزع الخلافة من قريش وتُردَّ إلى العرب بل إلى المسلمين جميعا، يقول:[2]

أيّها المشتهي فناءَ قريشٍ ... بِيَدِ الله عُمرها والفنَاءُ
إن تُوِّدع من البلاد قريشٌ ... لا يكن بعدهم لحيٍّ بقاءُ
لو تقفى وتَتْرُكَ النّاس كانوا ... غنم الذئب غاب عنها الرِّعاءُ

كما عرف الشاعر بمدحه لآل الزبير، وقد لزم مصعب بن الزبير واختصه بمدحه، وأخلص له الولاء، يقول:[3]

إنّما مصعب شهابٌ من اللـ ... ـه تجلَّتْ عن وجهه الظَّلماءُ
مُلْكهُ ملكُ قوَّةٍ ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياءُ

إذن لقد صاحب هذا الواقع السياسي المضطرب الذي عاشته الدولة الإسلامية في العصر الأموي- والذي غذته سياسة الأمويين- روحا شعرية تكاد تكون على قدر الصراع السياسي أو قل أكثر حماسة، حتى عُرف هذا العصر بعصر الشعر السياسي بلا منازع؛ لأن شعرائه التزموا بالقضايا السياسية التزاما منقطع النظير، ولأن العقيدة ظلت محورا لتلك الخصومات السياسية بين الأحزاب، يلتمس كل حزب فيها بيانا لحقه في الخلافة.